رجعة إلى البحتري

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أبدى لنا بعض الأدباء الأفاضل شكا في وصفنا للبحتري من حيث غلبة الصناعة على العاطفة في شعره واختلاط الحقيقة بالخيال في تلك الصنعة مما جعل بعض القراء يغترون بها ويحسبونها عاطفة . ولم نكن نريد انتقاص البحتري إذ عددناه ممثلاً في صناعته، يمثل العواطف المختلفة تمثيلاً متقناً؛ ولم نُرَجِّح صحة رواية كتاب الأغاني عن طريقة إنشاده وعن طلبه الاستحسان من الحاضرين وزجرهم إذا لم يُظْهِروا الإعجاب ، إلا لأن ذلك يفسر تناقض ما يمثل من العواطف والأحاسيس في شعره ، كما سنوضح ، ويتفق وطريقة الصناعة اللفظية التي ينتشي فيها الصانع بما يقول ، وقد أغفلنا الإشارة إلى ما يروى عن بخله إذ لا دخل للبخل بفنه ، وكذلك أغفلنا ما روى عن قلة اكتراثه بثيابه ونظافته ... الخ .

والحقيقة أننا نعجب بصناعة البحتري إعجاباً كبيراً ، لكن الإعجاب لا يمنع من الوصف والدراسة النفسية والسيكولوجية . وربما أخذ علينا بعض حضرات الأفاضل قولنا إن رثاءه للمتوكل كان صنعة وإننا نشك في قوله : (أدافع عنه باليدين ... الخ) . وقد رفضنا ما قرأنا في بعض الكتب من رواية لعلها رواية عدو أو رواية مازح أراد أن يداعب قوله : (أدافع عنه باليدين الخ) . فقد قيل إنه اختبأ أثناء مقتل المتوكل . ويمكن أن نقول إن الفتح ابن خاقان هو الذي حاول أن يدافع عن المتوكل بيديه ويحميه فقتله الفاتكون وهو من زعماء الترك مثلهم ، فما كانوا يتعففون إذا عن قتل البحتري إذا صح أنه دافع عنه باليدين إن لم يكن لغضب منه فلكي يصلوا إلى المتوكل . ولم نشأ أن نذكر أنه مدح المنتصر بعد أن هجاه في رثاء المتوكل ، ومدح زعماء الفاتكين وعرَّض بهجاء المتوكل في مديحه للمنتصر كما سنوضح ، ومدح المستعين الذي خلف المنتصر والذي كان منافساً للمعتز بن المتوكل الذي مدحه البحتري في رثائه للمتوكل ورجاء للخلافة ، ومدح ابني المستعين ورجاه للملك أيضاً ، كل ذلك والمعتز أسير حنين ، ثم بعد أن ثار الجند الترك على المستعين الخليفة واضطروه أن يخلع نفسه وفتكوا به هجاه البحتري بقوله :

وما كانت ثياب الملك تخشى جريرة بائلٍ فيهنَّ ... ري

وكان الندر والخيانة والانتقاض أموراً شائعة في ذلك العهد. وفي رثاء المتوكل يهجو المنتصر فيقول : (إذا الأخرق المجلان خيفت بوادره) ويقول :

ولا وأل (المشكوك فيه) ولا نجا
من السيف ناضي السيف غدراً وشاهرُهْ

وهذا يشمل المتهم بالتحريض غدراً وهو المنتصر ويشمل الذين شهروا السيف وقتلوا المتوكل وهم الذين مدحهم البحتري بعد ذلك . ورب قائل يقول : إن الشاعر لا دخل له بالسياسة فهو يمدح الحكومة القائمة . ولكن البحتري لم يكتف بمدح كل حكومة كانت قائمة بل كان يهجو الحكومة التي قُضِيَ عليها . وقد رأينا هجاءه للمنتصر في رثائه للمتوكل فانظر كيف يمدحه ويقول :

سروا موجفين لسعي الصفا وري الجمار ومسح الحجر
حججنا البنية شكراً لِمَا حباناً به الله في المنتصر

أي إنه حج كي يشكر الله على أن المنتصر تولى الخلافة وهو الذي يصفه في المرثية بالأخرق المجلان ويرجو ألا ينجو من أن يُقْتَل بالسيف لأنه متهم بالتحريض على قتل أبيه ، ولم يكتف بالحج شكراً بل وصف المنتصر بالحلم بعد وصفه بالخرق فقال :

من الحِلْمِ عند انتقاض الحلو م والحزم عند انتقاض المرر
تَطَوَّل بالعدل لما قَضَى وأجمل في العفو لما قدر
ودام على خُلُقٍ واحد عظيم الفناء جليل الخطر

ويقول :

ولكنْ مُعَنًّى كماء الغما م طابت أوائله والأخَر
تَلاقَى البرية من فتنة أظَلَّهُمُ ليلها المتكر
رددت المظالم واسترجعت يداك الحقوق لمن قد قُهِر
وآل أبي طالب بعد ما أذيع بربهم فأذْعَرْ
وصلتَ شوابك أرحامهم وقد أوشك الحبل أن ينبتر

وهذا المدح طويل جيد ، ولا يقل صناعة عن مدحه للمتوكل بل إن فيه تعريضاً بحكومة المتوكل وهجاء له ، إذ أن المتوكل هو الخليفة الذي غالى في اضطهاد آل أبي طالب. وقوله (رددت المظالم) هجاء صريح للحكومة السابقة ، وقال :

بقيت إمام الهدى الهدى تُجَدَّدُ من نهجه ما دثر

فإذا كان الهدى قد دثر وجدده المتصر فمعنى ذلك أن المتوكل هو الذى كان الهدى فى عهدى مندثراً .

وفى مدح العباس بن المستعين يقول :

تَوَلَّتْهُ القلوب وبايعته بإخلاص النصيحة والوداد

هو الملك الذى جُبِلَتْ عليه على قدر محبات العباد

بعد أن كان لا يرضى بعد المتوكل خليفة إلا بالمعتز ابنه ، وقد قال فى ذلك (وإنى لأرجو أن تُرَدَّ أموركم الخ)

وفى مدح المستعين يقول :

تِلْو رسول الله فى هَدْيِهِ وابن النجوم الزهر من آله

وهذا ليس مدحاً شكلياً لكل حكومة قائمة بل هو يُمَثِّل عاطفة الولاء الشديد والاقتناع بالصلاح وإلا ما قال (تلو رسول الله)

وبعد أن جعل المستعين مثل رسول الله عاد بعد تعذيب الجنود له وقتله فقال: (وما كانت ثياب الملك تخشى الخ) وقال أيضاً فيمن شبهه قبل ذلك برسول الله :

ثقيل على جنب التريد مراقبٌ لشخص الخوان يبتدى فيواثبه

إذا ما احتشى من حاضر الزاد لم يبل

أضاء شهاب الملك أو كلّ ثاقبه تخطّى إلى الأمر الذى ليس أهله فطوراً يثاربه وطوراً يشاغبه

وبعد قتل المعتز مدح أيضاً الحزب المناوئ له وخليفة ذلك الحزب وكان فى مدح كل خليفة يذكر مدحاً يصح أن يحمل على محل التعريض بالخليفة السابق الذى كان قد رفعه البحترى إلى السماء كما فعل مع المستعين[1]

وهذه الخطة لم تكن خطته نحو الخلفاء والوزراء فحسب ، بل إنه أيضاً منع النسيب والتشبيب فى علوة الحلبية حتى ظن بعض النقاد أنه من أصدق النسيب وهو ليس كذلك ، فهو فى القصيدة الواحدة يصفها بالصيانة والتبذل فقال :

بيضاء رود الشباب قد غمست فى خجل دائم يعصفرها

لا تبعث السُّود تستبين به ولا تبيت الأوتار تخفرها

وبعد هذا الوصف بالتصون يقول فى القصيدة نفسها :

وليلة الشك وهو ثالثنا كانت منات والله (يغفرها)

وعلى فرض صحة حدوث ما يستوجب (الغفران) أيليق ذكر ذلك فى النسيب الذى يصفها فيه بالتَّصوُّن ؟ وأدعى من ذلك أنه عاد وهجاها بأخبث هجاء بقول لا يتفق وما وصفها به من التصون وهو قول لا يمكن الاستشهاد به (صفحة ١٠٩ من طبعة الجوائب) وفيه أنكر عليها التصون والعفة والجمال والأنوثة. وقصته مع نسيم غلامه معروفة إذ كان يبيعه ويقبض ثمنه ثم يعود فيهدد الذى اشتراه حتى يرده إليه هدية كى يكسب المال . ونسيبه فيه نسيب ظاهره الرقة وباطنه فساد الذوق الذى يكون عند ما تنعدم العاطفة وتُدَّعى تمثيلاً قال فيه :

فقل لنسيم الورد عنّى فإننى أعاديك إجلالاً لوجه (نسيم)

ولو كانت عنده عاطفة لقال :

فقل لنسيم الورد أقْبِلْ فإننى أحبك مِنْ حبى لوجه نسيم

أو مِنْ حبى لطيب نسيم ، أو ما شابه ذلك إذ لا يُعقَل أنه يكره الرائحة الزكية لأن نسيم الورد اسمه مثل اسم نسيم . ما بقى إلا أن يتغزل فى الرائحة الكريهة إجلالاً لوجه نسيم كما يقول .

وقال أيضاً فيه :

لم يَجِدْ مثل ما وجدتُ وما أَدْ صفْتُ إن أنت لم تجد مثل وجدى

كيف يكون من الذوق والصدق أن يطلب من ذلك المملوك الصغير أن يعشقه ويحس بوجد مثل وجده به والبحترى شيخ كبير والمملوك غلام صغير ؟ أظن أن هذه الشواهد كلها تزكى وصفنا للبحترى وكنا لا نريد الإطالة ــ وهو وصف على أى حال لا يطعن فى علو صنعته .

فقد وصفنا فى مقالة (صيانة العقيدة من احتيال النفوس) أن النفس البشرية تستطيع أن تخفى عن نفسها قبح رذائلها وأن تزكيها بأن تلبسها لباس الفضيلة أو الدين

ومن نظراته الصادقة أيضاً قوله :

وما القرب فى بعض المواطن للذى يرى الحزم إلا أن يشطّ ويَبْعُدَا

فقد يكون فى البعد من الإبقاء على المودة ما لا يكون فى القرب . وهذه النظرات الصادقة ليست قليلة فى شعره بالرغم من فساد نظرته أحياناً. وأختم قولى عن البحترى بأن أعيد بيتاً له أعجب به وهو قوله:

ما أضعف الإنسان لولا همة فى نُبْلِهِ أو قوة فى لبه

إذ يعجبنى منه اختصاصه النبل بالهمة واللب بالقوة وجعل قوة الإنسان فى همة نبله كما جعلها فى قوة لبه

(١) تولى المعتز ثم خلع به الجند أيضا ثم ولوا المهتدى ثم تنكروا به أيضا وولوا المنصر فى زمن قصير فتنكروا بالتوكل وللمستعين والمعتز والمهتدى ويقال إن المتصر مات مسموما .

والغريب فى أمر البحترى أنه قد يخطئ فى المعنى إذا كان نسيباً ويصيب فيه إذا كان مدحاً كأن الرُّغْبَ فى قلبه أشد من الحب . أنظر كيف فسد ذوقه فى قوله فى النسيب وقوله فى ممدوحه نسيم :

فقل (لنسيم الوَرْدِ) عنى فإننى أعاديك إجلالاً لوجه نسيم

ثم إلى قوله فى المدح :

إنى لأضمر (للربيع) محبة إذ كنتُ أعْتَدُّ الربيع أخا كا

وإصابته فى البيت الثانى كانت خليقة أن تجعله يقول فى البيت الأول إنه يحب نسيم الورد لشابهة الورد للنسيم ، كما أحب الربيع لشابهته للممدوح ، ولكن له سقطات فى وصف الأحاسيس وما تقتضيه من القول شأن القائل بالصنعة لا بالعاطفة وإن كان أميرها . وأدهى مما ذكرنا أن عظيما من بنى حميد مات ابنته فحزن لموتها فنظم البحترى قصيدة يعزيه فيها فقال إن العاقل ينبغى ألا يحزن لموت أنثى أيّة كانت لأنها قد تجلب العار :

واستدلّ الشيطانُ آدم فى الجـ ـنة لمّـا أغرى به حوّاء

والفتى مَنْ يرى القبور لمّاطا ف به من بنـاته الأكفاء

ثم إنه يعرّض بمعنى العار ولا يصرح ولكنه تعريض كتصريح ، ففى القصيدة يقول :

إن أعاظم العرب ما كانوا يئدون بناتهن فقراً (بل تحيّةً وإباء)

وذكر احتمال العار كى يعزى به أباً حزيناً على فقدابنته ، والمعزّى من أعاظم الناس والفتاة التى ماتت من كريمات النساء . فساد فى ذوق الصانع حتى مع احتمال حدوث العار لو عاشت إذ يكون من فجاءات الحياة التى لا تتفق وكرم محتد التى يرثيها هذا هو خطأ ذكاء الصنعة ، أما إذا أسلم نفسه لذكاء الطبع والبصيرة النفسية (السيكولوجية) أتى بنظرات صادقة فى النفوس وأخيلة مثل قوله :

إذا أحرجت ذا كرم تحلّى إليك ببعض أخلاق اللئيم

واختياره كلمة اللئيم للكريم المحرَج يحس فيه مبالغة كما يعرف المفكر فى أخلاق الناس ، كما أنه يحس من المبالغة قوله فى البخل أو اللؤم أو ما شابه ذلك :

وتماحكوا فى البخل حتى خلته ديناً يدان به الإله ويُعبَدُ

عبد الرحمن شكرى